مجلة "آفاق فكرية"

ص. ص. 175 - 189

رت م د: 2353 - 0367

رت م د إ: 2602-5507

مَدرَسَة تلمسان الفرنسية الإسلامية وعلاقتها بإدماج النخب خلال الفترة الاستعمارية (1850 – 1951)

The French Islamic School of Tlemcen and its Relation with The Merge of Elites during the colonial period (1850-1951)

طا. با. زاوي نبيل [1]*، ولد النبية كريم [2]

[1] جامعة الجيلالي ليابس بسيدي بلعباس (الجزائر)، مخبر الجزائر تاريخ ومجتمع في الحديث والمعاصر zaouinabiltiaret@gmail.com

[2] جامعة الجيلالي ليابس بسيدي بلعباس (الجزائر)، karimouldennebia@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2022/03/10 تاريخ القبول: 2022/06/09 تاريخ النشر: 2022/10/10

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى التأريخ لمَدرَسَة (Medersa) تلمسان من خلال المعطيات منها البعد التاريخي لمدينة تلمسان، وكيفية اختيارها لتكون مقرا لنشر فكرة إدماج النخب الإسلامية من بين كلّ مدن الغرب الجزائري،كما تمّ التّطرق إلى مَدرَسَة تلمسان من حيث نشأتها ونظامها ومميزاتها؛ وأهم أهدافها، لقد سعت الجمهورية الفرنسية الثالثة إلى جعل المدرسة سلاحا بديلا للقوة والتصادم مع الجزائريين، ومعولا لحشو عقول الجزائريين بعظمة فرنسا، فركزنا ثانيا على أهم معلمي ومدراء المدرسة والمراحل والإصلاحات التي مرت بها والخدمات التي قدمتها للإدارة الاستعمارية، نحاول في هذه الدراسة الإجابة على إشكالية دور الاستعمار في محاولة تطبيق سياسة الإدماج بتوظيف النخب الإسلامية لصالحه.

كلمات مفتاحية: مَدرَسَة تلمسان؛ الجمهورية الفرنسية الثالثة؛ النخبة؛ إصلاحات.

Abstract:

This study seeks to provide a History of Tlemcen school (Madersa) through the data including the historical dimension of Tlemcen city and how it was chosen to be the center to publish the Idea of merging the Islamic elites among all Algerian West cities. The school of Tlemcen was also discussed in terms of its origin, system, qualities and main goals. The third French republic seeks to make the school an alternate weapon of power and collision with Algerians and a pick to fill Algerians minds with the greatness of France. So we focused secondly on the school main teachers, managers, steps and the repairs that it has been through and the services that it presented to the colonial administration. We try in this study to answer the problem: The role of colonialism in trying to implement the policy of Merging by employing Islamic elites in its favor.

Keywords: Tlemcen School; French Third Republic; Elite; Reforms.

* المؤلف المرسل.

مقدمة:

أنشأت السّلطة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر بمقتضى مرسوم 30 سبتمبر 1850 ما عرف بالمدارس الإسلامية الثلاث في العمالات المختلفة وبالخصوص في المدن: تلمسان، قسنطينة، المدية قبل أن تتحول إلى مدينة الجزائر العاصمة، أنشأت المدارس كمدارس حكومية رسمية شرعية سميت في أدبيات النصوص الفرنسية بالمَدَّرْسَة (Médersa)، وهذا من أجل إدماج بعض الجزائريين ومن ثمّ وضعهم في مناصب كالتّدريس والقضاء، والإمامة والترجمة وغيرها التي رأت فرنسا أنّه من الواجب إدماج أبناء المستعمرة فيها لإحكام قبضتها على البلاد.

لقد أقيمت ثلاثة مدارس إسلامية في تلمسان، قسنطينة، الجزائر العاصمة، وتجدر الإشارة إلى أنّ مَدَّرْسَة العاصمة كانت مدينة المدية أوّل من احتضنها ثمّ غيرت بقرار وزاري إلى البليدة في 17 جانفي 1855 لتثبت نهائيا بالعاصمة سنة 1859، وكانت المدارس الثلاثة في البداية تابعة للحكم العسكري حتى 16 فيفري 1876 الذي وضعها تحت الحكم المدني؛ وسلطة مديرية التربية (الأكاديمية)، تختص هذه المدارس في تكوين موظفين تحتاجهم الإدارة الفرنسية كالمفتي والباش عادل، والمترجمين؛ ومعلمي اللغة العربية في المدارس الجمهورية الثالثة، لقد كانت هذه المدارس ومن بينها مَدَّرْسَة تلمسان وسيطا بين الأهالي الجزائريين والإدارة الفرنسية، إذ تخرّج منها الموظفون الإداريون، والقضاة، وبكلمة عامة الشخصيات والعناصر التي أثّرت على السّكان، وطرحنا في هذا الخصوص الإشكالية التالية:

هل كان تأسيس مَدَّرْسَة تلمسان رغبة في تسهيل عمل الإدارة الفرنسية بإدماج الجزائريين في بعض المناصب الوسطى أو رغبة في تحييد فئة المثقفين الجزائريين عن خدمة القضية الجزائرية ضمن مشروع إدماجي ؟

وبالرغم من صعوبة الإجابة على هذه الإشكالية في بعض الصفحات،إلاّ أنّنا حاولنا الوصول إلى هدف توضيح حقيقة السياسة الاستعمارية بطريقتين اثنتين هما: الأولى تتعلق بالمنهج التاريخي وتوظيفه في هذه الدراسة، إنّه المنهج المناسب لمثل هذه التساؤلات وما يميّزه من تقنيات جمع المادة نقدها، وتركيبها في عناصر منظّمة ومرتّبة، ثمّ إنشائها في مقال أكاديمي، أمّا الطريقة الثانية التي وظّفناها في الإجابة على الإشكالية فهي الوثائق التاريخية المتعلقة بالشهادات المكتوبة لأصحابها وهم كثيرون إلى جانب البعض من أهم المصادر والمراجع المتعلقة بالموضوع نفسه، ونحن بهذا نحاول فقط توضيح المسألة التاريخية المتعلقة بالسياسة الاستعمارية الثقافية الخطيرة في الجزائر.

1. دواعي اختيار مدينة تلمسان مقرّا للمَدَّرْسَة في الغرب الجزائري:

إنّ لمدينة تلمسان ماضيا تاريخيا هاما؛ اكتسبته من موقعها الجغرافي الممتاز بالإضافة إلى كونها عاصمة المغرب الأوسط (الجزائر) لمدة تزيد عن ثلاثة قرون، ازدهر خلالها الفكر؛ أخصبت الحضارة وتطور العمران، واستهوت العديد من رجالات الفكر والثقافة والسياسة، ممّا جعلها في الأخير مدينة الفنّ والثّقافة والتّاريخ الفنّ (بوعزيز، 2004، ص.62)، عرفت هذه المدينة هجرات عديدة وتوافد كبير للعلماء من مناطق مختلفة خاصة من فاس وتونس والأندلس، هذه الأخيرة التي مثّلت هجرة علمائها أثرا بالغا على المجتمع التّلمساني، حيث اشتهروا بثقافتهم العالية وعلمهم الوافر وعلمهم الوافر (شقرون، دس، ص.6) وما يزيد هذه المدينة وزنها كونها عاصمة قديمة لبني زيان، حيث عرفت بقبابها وصنائعها الإسلامية ومدارسها (سعدالله، 1998، ص.171)

ونظرا لقرب تلمسان من المغرب الأقصى، ولاعتبارها حاجزا يمنع سكان المدن المجاورة كوهران مستغانم؛ معسكر؛ التنقل إلى زوايا المغرب الأقصى، لأخذ العلم الذي كان يشكل خطرا على الاستعمار الفرنسي، فعلماء المغرب الأقصى كانوا في نظر فرنسا هم الموقدون لعقول الجزائريين بأفكار عدوانية تجعلهم يحملون بذور التّعصب ضدها، وبالتالي فإنّ توجههم نحو المنطقة يصعّب على السلطات الفرنسية مراقبتهم ومتابعتهم.

2. نشأة المَدَّرْسَة نظامها وتطوّرها:

كانت مدّرسة تلمسان من (1850-1852) قد أقيمت بالقرب من مدرسة سيدي بومدين الغوث (1126-1198هـ) أحد أقطاب التصوف المغاربي، ودفين تلمسان ما بين (1850-1852)، ثمّ تحولت المدرسة ما بين (1852-1876) إلى الحباب بالقرب من منطقة الأغا بن عبد الله، وما بين (1882-1890) أصبحت بالقرب من شارع المشور للتّحول فيما بعد إلى بيت مبخوث بالقرب من مسجد سيدي إبراهيم ما بين (1890-1905).

أصبحت المدرسة في عام 1905 جاهزة في عمارتها النهائية لتستقر بالقرب من باب المغرب قرب مدرسة أولاد الإمام إلى غاية 1960، وقد تحولت المدرسة إلى ثانوية فرانكو ميزيلمان (lyceé d'enseignement franco-Musulman) سنة 1951 على غرار باقي المدارس الجزائرية الأخرى. وتجدر الإشارة هنا أنّ المدرسة كانت تستقبل التلاميذ من جهات خمسة من عمالة وهران وهي كالتالي:

ندرومة وجهاتها، مازونة وغليزان، معسكر، سيدي بلعباس وأحوازها، البيض وسعيدة والمناطق الجنوبية.

وضعت هذه المدرسة تحت إشراف السلطات العسكرية، بالرغم من أنّ إدارتها عربية ومعلميها من العرب، حيث يشرف عليها الحاكم العام؛ ويراقبها الضّباط الحاكمين في كلّ إقليم من الأقاليم الثلاث بواسطة المكاتب العربية (سعدالله، 1998، ص.371)، كما كانت مصاريف التأسيس والتسيير تقتطع من ميزانية الوزارة (قنان، 2007، ص.68)، كان التعليم في هذه المدّرسة الخاصة بالجزائريين هو أدنى مستوى من التعليم في مدارس أبناء الأوروبيين، سواء من ناحية المعلمين أو التجهيزات المدرسية؛ والوسائل والبرامج التعليمية؛ وحتى في الأبنية وغيرها من الأمور الأخرى (عمامرة، 2001، ص.15)، وممّا يلاحظ على مدرسة تلمسان أنّها كانت منافسا للزوايا في المنطقة. الشهادة التي تمنح في هذه المدرسة تؤهل إلى الوظائف الدنيا المخصصة للأهالي في الإدارة الفرنسية ونذكر منها: العون، الحاجب، المؤذن والمعلم؛ وهذه الوظائف لحاملي الشهادة الابتدائية، أمّا الحائزين على شهادة الدراسات العليا فوظائفهم كالآتي: المفتي الإمام، القاضي والباشا عدل (سعدالله، 1998، ص.400)، والغرض من فتح هذه المدارس هو إغراء أبناء الجزائريين للحصول على مناصب عمل إدارية هامة في المستقبل عن طريق التأطير الجيّد، بتلقين برنامج دراسي مفيد للتلاميذ، حتى تنافس هذه المدارس أكبر الجامعات العربية الإسلامية بالمشرق العربي (Turin, 2003, p.186) وكان التّعليم في هذه المدرسة مجانيا،حيث كانت تمنح الإدارة مساعدات مالية قدرت بـ 100 فرنك سنويا، توزع على العشرة الأوائل المتفوقين في الدراسة، وهذا الجدول نموذج من الطلبة الذين اقترحوا على الإدارة من أجل تسليمهم تلك المكافآت.

جدول1

قائمة لأسماء بعض الطلبة المقترحين على الإدارة من أجل تسليمهم تلك المكافآت المالية

الإجازة فرنك/ف	أسماء الطلبة	الإجازة فرنك/ف	أسماء الطلبة
05	شريف حمادي	15	بومدين
05	أحمد البدجاوي	15	الحاج بن غبريط
05	قادة السنوسي	15	عبد الرحمن المنور
05	محمد بن الحاج	10	مصطفى بن عودة
05	إبراهيم بن الحاج	10	محمد بن علي
05	محمد بخدة	05	صالح بن علي
05	أحمد بخدة	05	الحاج بن حسين

05	محمد بن روان	10	محمد بن روستان
05	عبد الله بوغوفة	05	محمد بن ساري
05	محمد بن قازي	05	حمو بن علال

المصدر: (Archives D'outre-mer à Aix-en-Provence,France,boite:1s/37,Ecole Arabe Française de tlemcen,état nominatif des éléves propsés pour une récompense,tlemcen,, 01/12/1864)

3. التعليم و تكوين النّخب بمَدَّرْسَة تلمسان:

في شهر مارس 1851م تمّ تعيين الأشخاص المؤطّرين لهذه المدّرسة المتمثلة في المدراء وهيئة التدريس. عُيّن على رأس المدرسة **سي أحمد بن طالب** الذي شغل في السابق وظيفة القاضي في المدينة لمدة سنتين، ومشهود له بالعلم والدّراية وحسن السلوك، وبمقدوره تدريس كلّ المواد المقررة في البرنامج وهي: النحو، الفقه والتوحيد، والأستاذان الآخران هما: خطيبا مسجد سيدي بومدين ولهما سمعة حسنة وكفاءة علمية (قنان، 2007، ص.70)

يقدّم طلب الالتحاق بالمدرسة لرئيس المكتب العربي بالناحية، الذي يقوم بتحويله إلى قائد الفرقة الفرعية، حيث يقابل رئيس الدائرة في الإدارة المدنية مرفقا بملاحظاته حول شخصية صاحب الطلب، وهذا الأخير يحوله بدوره إلى قائد الفرقة في المقاطعة الذي ينظر في طلبات القبول؛ ويرسل قرارا بذلك إلى مدير المؤسسة، يسجل الطالب تسجيلا مؤقتا لمدة ثلاثة أشهر كمرحلة اختبار لقدرته على متابعة الدروس وسيرته الحسنة، وفي الأخير يتمّ التّوصل بالإقرار بقبوله أو طرده من المدرسة، كما يمكن للطالب الالتحاق بالمدرسة في أي وقت من السنة لأنّه ليس هناك وقتا محدّدا للتسجيل، يشترط على الطالب معرفة اللغة الفرنسية ولا يسمح لكلّ النّاس التعلم بها، وإنّما للأفراد الذين يظهرون ميلا لفرنسا ويتجاوبون معها.

وكان يشترط على الطالب أن لا يقل عمره عن 13 عاما، وأن لا يزيد عن 37 سنة، كما يشترط عليه للالتحاق بالمدرسة تقديم طلب، ويمنح له أثناء دخوله 0.8 سنتيما يوميا لاقتناء أدواته المدرسية (Malika, 1998-1999, p.74)، لقد كانت مدّرسة تلمسان منافسا للزوايا التي يسيّرها المرابط، والتي كانت تحت مراقبة الضّباط العسكريين عبر المكاتب العربية، وقد بلغ عدد الطلبة الوافدين عليها 68 طالبا (Foucher, 1858, p.32). إنّ المحلّل للوثائق المتعلقة بالمدرسة الإسلامية بتلمسان يلمس جوانب عديدة بالنسبة للبيئة الثقافية؛ والعلمية التي كانت عليها المدرسة منذ بداية افتتاحها، وبالنسبة للعلاقة المنسوجة بينها كمؤسسة علمية تربوية والزوايا الدينية التي كانت تزودها بأفواج الطلبة لفترة طويلة، كما هو الحال لزاوية أولاد سيدي الطيب بعمي موسى

زيادة على العلاقة العضوية والتكاملية بين أساتذة الشريعة؛ واللغة والفقه؛ الذين ينتمون إلى هذه المدرسة، والمدرسين الكبار في مساجد المدن المتحضرة بتلمسان أمثال بني سنوس وندرومة ومناطق أخرى بوهران، ومعسكر وسيدي بلعباس ومستغانم، ممن تفرق فيها المفتين والأئمة ومعلمي القران الكريم، الذين التحقوا كأساتذة بالمدرسة الإسلامية من قبل الإدارة الحكومية أثناء شغور المناصب والتي في حالات عديدة عينوا في القضاء الرسمي بصورة عادية، أو كمستشارين ومساعدين أو مهام عليا،مثلما حدث للسي بوعلي الغوتي بن محمد المدرس بمسجد بلعباس آنذاك عندما تم انتدابه إلى مدينة طنجة المغربية، للمساهمة في تحرير جريدة السعادة لمدة ستة أشهر إلى غاية شهر ماي من سنة 1904 هي إذن تلك المدرسة، التي عرفت كبار العلماء في الشريعة والنحو والتوحيد في الجهة الغربية من الجزائر، نذكر منها سي أحمد بن طالب، وسي محمد بن مرابط من مدينة تلمسان ومولاي الطيب ولد بن عزة من منطقة الحناية بولاية تلمسان، وسي محمد ولد عبد الله من أعالي العباد (ضريح سيدي بومدين)، والسي طاهر بن غراس من منطقة طرارة، ومحمد بن عبد الله الزقاي صاحب إجازة البلاغة من جامعة الأزهر، وثلة من علماء معسكر السي محمد بن ويس؛ ومحمد بن الشيخ؛ وسي الحبيب بن عربي؛ ومحمد بن أحمد، أضف لهم بن نميش وأحمد بن بشير، وأحمد بن حمزة (فايزة. ش، 2013/08/31، ص.14)، مدرسة تلمسان في نظرنا جعلت من المدينة قاطبة مركزا دينيا في الجزائر (Turin, 2003, p.187) إذ استطاعت أن تكوّن دفعات من الطلبة ابتداء من 1850 متشبّعة بالثقافة العربية الإسلامية وفي الوقت نفسه ملمّة بالعلوم، واللغّة؛ ومبادئ القانون المدني والجنائي والإداري الفرنسي، وفي الوقت نفسه هم مطلعون على الحالة السيئة التي يوجد عليها الجزائريون اجتماعيا، واقتصاديا، وثقافيا وهم على دراية كاملة بأوضاع الجزائر رفقة المتنورين من صف "المعلمين"، والمثقفين التقليديين من أمثال أمحمد بن رحال النّدرومي، وأبي بكر عبد السلام بن شعيب،وقد نشط هؤلاء في تقصي البعثات البرلمانية كما حصل مع بعثة الثلاثة والعشرين لجول فيري (Jules Ferry) سنة 1892، وبعثة 1900 بدعوى الإصلاح.

بلغ عدد المتخرجين من مدرسة تلمسان سنة 1854م 91 مدرسا موزعين ببني سنوس والغزوات ومغنية وسبدو، وتشكلت آنذاك بمقاطعة تلمسان أربع دوائر بتاريخ 13 جوان 1854، بحيث تواجد بتلمسان 12 قاضيا، وأربعة مفتين و24 عالما دينيا،وظهر عالمان 02 من مدينة مغنية وتسعة علماء من الغزوات و11 من بني سنوس، والأقلية منهم بسبدو بما مجموعه في نفس الفترة

62 عالما كانت من أهم النّخب الجزائرية والتي تحدث عن دورها الفرنسي فريموك جاك (فايزة. ش، 2013/08/31، ص.15)

4. تسيير المَدَّرْسَة، برنامجها التعليمي ومواد التدريس:

الإطار التربوي يتشكل من المدير الذي يقوم إلى جانب مسؤولياته، بتدريس إحدى مواد البرنامج وأستاذين يتم تعيينهما من طرف وزير الحربية، بناء على اقتراح الوالي العام كون هذه المؤسسات تحت إشراف وزير الحربية مباشرة، التي يمارسها عن طريق قواعد الفرق العسكرية في المقاطعات الثلاث بواسطة المكاتب العربية، يعين في كلّ مدرسة وقّاف للحراسة والقيام بشؤون المدرسة الأخرى، من طرف قائد الفرقة العسكرية للمقاطعة، وباقي الرتب من مدير المدرسة كما كانت السلطات الفرنسية تقوم بإجراء تفتيش سنوي للمدارس، ويساعدها في ذلك أحد المستشرقين القائمين على حلقات العربية.

يبدأ العام الدراسي في 15 شوال وينتهي في 29 شعبان، والعطلة السنوية تبدأ من أوّل رمضان إلى 14 شوال؛ ثمّ حولت إلى فصل الصيف، أمّا أيام العطل في الأسبوع فهي الجمعة والأحد وفي الأعياد الدينية: عيد الأضحى من 09 إلى 12 ذي الحجة وعاشوراء من 09 إلى 12 محرم، والمولد النبوي من 12 إلى 15 ربيع الأول (قنان، 2007، ص.70)

السنة مقسّمة إلى سداسيين؛ كلّ سداسي ينتهي باختبار حول الموضوعات التي تم تدريسها وتختتم السنة الدراسية بامتحان الانتقال إلى السنة التالية، كما أنّه لا يسمح للراسبين بإعادة السنة إلاّ مرة واحدة في المسار الدراسي ككلّ، وعند نهاية السنة يجرى امتحان التّخرج على يد لجنة مكونة من مدير المدرسة وأساتذتها، بحيث يغطي الامتحان جميع المواد للسنوات الثلاث، ويحصل على إثره الناجحون على إجازة التّأهل، لشغل وظيفة من وظائف الشريعة الإسلامية أو الأمور الدينية التي يتم تحديدها في الإجازة الممنوحة، بالنظر للعلامات التي حصل عليها الطالب في الامتحان (قنان، 2007، ص.74) برامج هذه المدارس مستوحاة من الثقافة العامة للأهالي، وكذلك من أجل تحضير مثبتين (مرسمين) في الوظائف العامة، ومن هنا جاء مخطط الدراسة بتدريس جميع المواد المختلفة باللغة العربية مثل الأدب العربي، الدّين الإسلامي، وذلك منذ مراحلها الأولى، ولكن بعد إصلاح 1876 أصبحت اللغة الفرنسية منافسة للغة العربية.

تدرّس فيها قسمين من المواد: القسم الأوّل: يشمل مواد المرحلة الابتدائية وهي: اللغة الفرنسية وآدابها، الجغرافيا والتاريخ باللغة الفرنسية، القوانين والأنظمة الإدارية باللغة الفرنسية، العلوم الطبيعية ومبادئ الصحة العامة باللغة الفرنسية، والتّوحيد باللغة العربية، والفقه الإسلامي واللغة العربية وآدابها، فإذا أتمّ الطالب برنامج المرحلة الأولى، القسم الأوّل ومدته أربع سنوات تحصل على الشهادة الابتدائية، ثمّ يدخل من يشاء إلى القسمين العاليين والمتواجدين فقط في المدرسة الثعالبية بالعاصمة. (عمامرة، 2001، ص.369) القسم الثاني: المرحلة العالية وتدرّس بها المواد التالية: الفقه والتفسير والأدب العربي، وتاريخ الحضارة الفرنسية، ومبادئ القانون الفرنسي (سعدالله، 1998، ص.372)

النظام الإداري الجزائري، ومدّة الدراسة في هذا القسم سنتان ويضم فرعين للعلوم الشرعية والقانون المدني، وقد ألغي باب الجهاد من التّدريس، بالإضافة إلى مادة التوحيد التي نص عليها مرسوم التأسيس (سعدالله، 1998، ص.372)، أمّا الحجم الساعي للمواد فتتمثل في أربع ساعات دروس،وثلاث ساعات للمطالعة تحت المراقبة.

5. تجاهل تدريس تخصص التوحيد بمَدَّرْسَة تلمسان وسيلة لإدماج النّخبة وضرب الهويّة:

مع صدور مرسوم 30سبتمبر 1850 كانت الإدارة الفرنسية تصبوا لحذف بعض المواد كالتّوحيد،لأنّ هذه المادة تعلّم وحدانية الله تعالى وقدرته في الكون، ولمّا غاب مدرّس هذه المادة عن المدرسة خلال عام 1850، تعمّد المجلس البلدي والسلطات عدم إدراج غيابه في المجالس التي كانت تبرم عبر فترات في البلدية، وكأنّ أعضاء المجلس تجاهلوا هذا الموضوع، ولم يحتج أيّ منهم لهذا الغياب،كما كانت تختار الإدارة الأساتذة الخاضعين للسلطة، من أكابر العائلات ومن لديهم قوة التأثير على الجزائريين (Tengour, S.D, pp. 83)، وتواجد هؤلاء يعمل على جلب علماء آخرين،وقد عملت السلطات أيضا على تعيين مدرّس فرنسي يتقن اللغة العربية ويلقّن التلاميذ اللغة الفرنسية،وهذا لإدراجها كمادة أساسية ضمن البرنامج ويجب تعلّمها، وكلّ ذلك لضرب هوية الإسلام والتّقليل من قيمة المعلمين المسلمين بإدراج مواد أخرى كالتاريخ الفرنسي والجغرافيا، بهدف إدخال الفكر الغربي والحضارة الفرنسية وبثّهما في عقول الطلبة، والقضاء على الهوّة الموجودة بين الجنسين ومحاربة التأثير الروحي للدّين الإسلامي في النفوس، وكان التلاميذ الجزائريين يحرمون من التّنقل إلى القسم الأعلى إلاّ إذا كانوا قد تعلّموا الفرنسية وهذا ضربا للدّين والهويّة بكلّ أبعادها (bel, 1908, pp. 82-84)

لقد كان الانضباط والصرامة مفروضين على المتمدرسين الجزائريين وكان هذا جزءا من النظام الداخلي، وبعد تخرج هؤلاء الطلبة يجتازون مسابقات لمعرفة قدراتهم العلمية وكفاءاتهم، كما حدث أثناء تنصيب أحمد بن البشير حينما أراد أن يكون مدرسا لمادة الحقوق والتشريعات الإسلامية، فلم يكن له ذلك إلاّ بعد اجتياز امتحان بحضور لجنة مكونة من لوزارد (lauzed) ورئيس محكمة مدينة وهران فوسيوكس (capitaine le division Fossoyeux) وهودا (Houda) أستاذ مادة العربية، وكلارك (Clerc) وهو مترجم، بالإضافة إلى علي بن عبد الرحمن مفتي وهران، والحبيب بن البخاري هو محلّف بالمحكمة من الدرجة الأولى بوهران (Assesseur auprès de tribunal de première instance d'Oran)، وقد تضمنت تلك المسابقة سؤالين كتابيين في القانون وعلم البلاغة، أمّا الشفوي فكان حول حفظ القرآن الكريم، إذ كانت مسابقة صعبة وصارمة، وعيّن بلبشير بهذا المنصب، حيث كلف بثلاث وظائف، فكان معلما يتقاضى أجرا سنويا قدّر بـ 1500 فرنك ومحلّفا براتب 1000 فرنك، وإماما بـ180 فرنكا، فكان مجموع راتبه السنوي 2680 فرنكا (01/12/1864, p. 1s/37)، ولذلك نجد الطالب أحمد بن محمد المدجل يقدّم طلبه للمفوض المدني يتمثل في تعويض المعلّم بلبشير ليخلفه في منصبه، وقد تضمن طلبه ذلك شيئا عن سيرته الذاتية، كدراسته بتلمسان وإقامته قرب باب سيدي أبي مدين، وخلال عام 1870 شارك في مسابقة توظيف العدول، وفاز بالمرتبة السادسة، وطالب المفوض بأن يبقى بتلمسان وبأن يعيّن معلما للصبيان بجامع الحسن (01/12/1864), p. 1s/37)، يلاحظ أنّ دور المدرسة التلمسانية كان مهما للغاية لاسيما في المرحلة الممتدة ما بين (1850-1912) وما بعدها في استقبال وفود الطلبة وتخرجهم، وأيضا فيما يتعلق بالجانب التكويني الذي اتصف بيداغوجيا بحداثة البرامج عبر مراحل زمنية متتالية.

6. علاقة مَدَّرْسَة تلمسان بإدماج النّخب الجزائرية و نشاطها السياسي:

استخدمت بعض الشخصيات الفرنسية نفوذها لمحاولة التحرير الثقافي للجزائريين أمثال جول فيري (Jules Ferry)؛ وأوغست بوردو (Auguste Bordeaux)؛ وأميل كومب (émile combes)؛ وليون بورجوا (Léon Bourgeois)؛ وألفريد رامبو (Alfred Rambo) وغيرهم، إذ لم يكن الجمهوريون يرغبون في أن تصبح قضية تعليم الجزائريين من اختصاص الكولون، ولم يكن تصرف الجمهوريون بهذا الشكل من 1882 إلى 1892 وعلى رأسهم جول فيري نابعا من مبدأ الحياد المدرسي

الغالي على الجمهوريين، بقدر ما يعبّر في حقيقته عن وجود سياستين استعماريتين واحدة في باريس والأخرى في الجزائر (Colonna, 1975, p.82)، مدرسة الجمهوريين تمثل سياسة الدمج وإلحاق مستعمرة بالوطن الأم، في حين تمثل مدرسة الكولون سياسة الانفصال عن فرنسا والاستقلال بنفسها، لأنّ القوانين المتعلقة بالأرض والقضاء والإدارة كانت تسيّر وفق مصالح هؤلاء الكولون، وأنّ المدرسة كوسيلة للإدماج كانت تشكل خطرا عليهم (Colonna, 1975, p.40)، هذه الشريحة استطاعت أن تبرز بوضوح مع سياسة الحاكم العام جونار 1900-التي كانت تسعى لاستقطاب الطبقة النخبوية لفرنسا لترسيخ فكرة جلب رسالة حضارية للجزائر.

إنّ الأندية والجمعيات الثقافية على مستوى الغرب الجزائري؛ قد واكبت هي الأخرى النهضة الثقافية السياسية، التي كانت تجري في الجزائر ومبكرا، فمنذ 1901 وجد بتلمسان حزب الحضارة والتّقدم، وهذه المدينة الحضارية والثقافية كانت السباقة على مستوى مدن القطاع الوهراني في رؤية مثقفيها يؤسسون "نادي الشبان الجزائريين"يوم 28 مارس 1910 حيث تشكلت اللجنة الإدارية من الأستاذ أبو بكر عبد السلام بن شعيب، ومدرّس بوعلي غوتي، وخوجا ابن تركية محمد، وموظف بالبنك ابن دالي محمد، وتاجر شلابي عبد الكريم، وابن عمر بن علي، وديب يوب، وخراجا الحاج، وثلاثة مدرّسين بخشي محمد؛ وابن سماعيل محمد؛ وعبورة مصطفى؛ ومساعدي محامي: ابن ددوش مصطفى؛ وويس غوتي، ومحامي طالب عبد السلام، ومحاسب ابن يادي محمد، وفلاح بربر بن علي وملاك مالطي محمد، وخلال سنة 1912 أسّس المدرسون المسلمون بتلمسان دائما جمعية رياضية سميت "النادي المسلم تلمساني" ترأسه المحامي طالب عبد السلام (مهديد، 2012، ص.193) ونتيجة لهذا الحراك السياسي، الثقافي والرياضي؛ برزت نواة من النّخبة الواعية من البرجوازية الإدارية الجزائرية، رفقة بعض المدرسين ساهمت في تنوير الحياة السياسية والثقافية داخل القطاع الوهراني، ولخوض غمار التّحديث والإلمام بمشاكل المجتمع وحاجياته.

7. أهداف الاستعمار من تأسيس مَدَرْسَة تلمسان:

يبدو أنّ تأسيس هذه المدرسة يدخل في إطار مشروع استعماري خبيث لم تكن له أيّة نية لتطوير الجزائريين وتمدينهم كما ادّعى الفرنسيون وقبيلهم، بل كانت المدرسة في مخيلة ساستهم وسيلة لاستبدال لغة بلغة؛ دين بدين؛ وعادات بعادات؛ إذن نيّة فرنسا من وراء المدرسة أساسها الإدماج، وهي أداة أحسن وأنفع من استخدام القوة والضغط ويمكن إجمال أهداف المدرسة فيما يلي:

- الحد من التأثير الخارجي للمدارس الكبرى أو المساجد،وهي تلك التأثيرات التي طالما تأثرت بها الجزائر من المغرب الأقصى القرويين في فاس، أو تونس جامع الزيتونة أو مصر جامع الأزهر، وقد شكلت هذه الأقطاب الثلاثة مركزا للتأثير على الجزائر، وقبلة للهجرة من الداخل إليها، ولطالما عاد هؤلاء الأئمة أو الطلبة متشبعين بثقافة رافضة ومعادية للاستعمار أو مشجعة للنهوض ضده، وأنّ أغلب الحركات أو التمردات التي ظهرت ضد الاستعمار قادها هؤلاء الذين يملكون ثقافة دينية من الإخوان والمرابطين أو تأثروا بالسياسة الاستعمارية العدائية ضدهم.
- رغبة فرنسا في الظهور بمظهر الدولة التي تحرص على نشر الثقافة داخل مستعمراتها، بدعوى أنّها جاءت لتحرير هذه الشعوب خاصة الجزائريين من سلطة الأوجاق، لذلك جاء رفضها مباشرا لما كان موجودا قبل 1830 رغم أنّ جميع الدراسات تؤكد أنّ التّعليم كان موجودا ومنتشرا وتؤكد كولونا (F. Colonna) (Colonna, 1975, p. 30) أنّ تقرير 1840 يبين أنّه من بين 12 ألف (سكان العاصمة) نحصي 24 مسيدا يستقبلون 600 تلميذ ولكن منذ شهر فيفري 1846 انخفض العدد إلى 14 مسيدا يقدمون تعليما إلى 400 تلميذ، وهذا ما يفسر سياسة الاستعمار في تضييق الخناق على التعليم الأهلي وذلك بضرب موارده كالأوقاف ليسهل عليه تقديم تعليم يصب في مصلحته، ويورد آجرون ...."التعليم العام للمسلمين كان متطورا نسبيا سنة 1830 تقريبا، اختفى خلال مرحلة الغزو، وعندما بدأت الإدارة الفرنسية من 1846 -1848 الاهتمام بوضعية المدارس الإسلامية كانت كلّ التقارير تصب نحو ضعف هذه المدارس...."(Ageron, 1979, p. 74) .
- مسخ وتشويه تاريخ وجغرافية الجزائر وبتجاهلهما أحيانا وحرمان الجزائريين من دراستها دراسة صحيحة وافية في المؤسسات التعليمية الحكومية، والتّدخل لإلغائها في المؤسسات التعليمية الحرة، وبذلك إنكار الذات الجزائرية ويقول أحد المعمرين في هذا الصدد "يجب على المدرسة الفرنسية أن توجه سهامها وتضرب بقوة كل ما هو وطني وديني، وبخاصته كلّ ما من شأنه أن يساهم في تكتل الأهالي حول هويتهم الأصلية."
- تكوين طبقة من أبناء الشعب تكون الواسطة بين الإدارة الاستعمارية والأهالي وتساهم في تسيير القطاعات الدينية والعبادة مثل: المحاكم الإسلامية، والشؤون الأهلية والمساجد ولكن بنظرة فرنسية تستطيع مواجهة المدارس الحرة، أو الزوايا التي أصبحت توجه إلى جمع كلّ

الرافضين والناقمين على الاحتلال، لذلك جاء عمل هذه المدارس كما بيّن أحد نواب البلديات على طريقة تشكيل الشباب الأهالي على نسق عاداتنا وتقاليدنا ولغتنا لا يكون عن طريق إنشائهم في مؤسسات خاصة لوحدهم (Bouchama, 31 Mai 2008, p. 7)

8. أهم أساتذة مدرسة تلمسان:

لقد ظهرت عدة أسماء لأساتذة مشهورين بهذه المدرسة نعرضها في الجدول التالي:

جدول2

أبرز أساتذة مدرسة تلمسان بعد 1850

أسماء المدرسين	الفترة الزمنية	المواد المدرسة	ملاحظات
أحمد بن طالب(كفيف)	1854-1851	النحو	مدير
طالب بن عزة	1853-1851	التوحيد	مدرس
الحاج محمد بن عبد اللّه زقاي	1851	التوحيد	مدرس
بن مرابط	1867-1861	النحو	مدرس
الطاهر بن عراس	1859-1853	الفقه	مدير
أحمد بن حمزة	1877-1859	الفقه	مدير
محمد بن نميش	1871-1859	الفقه	مدرس
محمد بن ويس	1874-1872	الفقه	مدرس
Pierre françois pilard	1874-1859	الحساب-التاريخ-الجغرافيا-الفرنسية	مدرس
Guérin	1882-1881	الحساب-التاريخ- الجغرافيا	مدرس
إدريس بن عزة	1896-1883	المذاهب	مدرس
إدريس بن طالب	1884	الأدب العربي	مدرس
Maurice Gaudefroy Demombynes	1898-1895	التاريخ-الجغرافيا-الفرنسية-قانون فرنسي	مدير
William Marçais	1904-1898	التاريخ-الجغرافيا-الفرنسية	مدرس
Alfred Bel	1905-1899	الآداب الفرنسية	مدير

المصدر: (هلايلي، 2017، الصفحات 46-48)

حتى في اختيار الأساتذة بالمدرسة كان لابدّ أن يكون هؤلاء ممن لديهم قوة التّأثير على بقية العائلات الأخرى، بالإضافة إلى دراسة مرتبتهم العلمية وشخصيتهم كعائلة عبد الله الزقاي، حيث عيّن عبد الله بقرار 1861/05/25 كعضو في المجلس الأعلى الاستشاري بالجزائر، بعدما كان أستاذا بالمدرسة العليا بتلمسان وعوّضه محمد مرابط أستاذ النحو واستغلت الإدارة الفرنسية عائلة

الزقاي مدّة معيّنة لتأثيرها على بقية العائلات فالكفاءة وحدها قد لا تكفي، الولاء لفرنسا هو شرط أساسي في حصد المناصب ومختلف الترقيات.

خاتمة:

لم تكن مدرسة تلمسان الفرنسية الإسلامية جزءا من المشروع المزعوم من الإدارة الاستعمارية بأنّ فتح مثل هذه المدارس هو من أجل تمدين الجزائريين، في الحقيقة هو تدشين لسياسة التواصل مع الأهالي، قصد التحضير للمستقبل مع شركاء من الجزائريين وفق بيئة يسيطر عليها النمط العربي-الإسلامي، إنّ هذه السياسة ظهرت في حقيقة الأمر عملية متناقضة كانت تبحث عن جزائريين يرضخون للمنظومة العربية الإسلامية ولكن كلّ هذا كان من شأنه ضرب المستعمر في مقتل، ومن أجل تطبيق سياسة التواصل بين المحتلين والأهالي الجزائريين وإدارة ما يسمى بالمكاتب العربية، كان من الضروري على الإدارة الفرنسية تكوين القضاة، وما كان يسمى بالعادل، والباش عادل، والمترجمين وأئمة المساجد، وكلّ الموظفين العاملين في شؤون الفقه الإسلامي، لقد كانت المهمة واضحة والخطوط مرسومة لهؤلاء مسبقا فسياسة فرنسا كانت تستثنيهم من المنافسة مع نظرائهم الأوروبيين.

ورغم أنّ مدرسة تلمسان استطاعت تخريج عدد من الأبطال سوف يكون لهم تأثيرا في الثورة على غرار بن علي بودغن المعروف بالعقيد لطفي، مناضل قومي قائد الولاية الخامسة، عبد العزيز زناكي، كاتب وشاعر، مدرّس اللغة العربية الجزائرية في المدرسة الخاصة للغات الشرقية في باريس، الحاج طاهر زرهوني مفتش أكاديمية وهران، السكرتير المكلف بالتّعليم المتوسط والثانوي، وزير التربية الوطنية، ماهي خليل، سياسي وخبير ضرائب، مصطفى اسطمبولي مسؤول عن الولاية السادسة، وبعض الناشطين السياسيين والدبلوماسيين المرموقين من أمثال عبد القادر أوجواج، محامي وناشط قومي، وعضو في المنظمة الخاصة (OS) ومحمد مزيان، ناشط قومي مسؤول عن الدعاية واللوجستيات بسبدو، عبد القادر محداد، كاتب وسياسي عضو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، عمر ديب كاتب وصحفي، بوعلام بسياح، عضو المجلس الوطني الثوري، دبلوماسي ورئيس المجلس الدستوري، محمد بجاوي فقيه وسياسي، رئيس المجلس الدستوري، بوعلام باقي، سياسي ووزير العدل ثمّ الشؤون الدينية، لكن الكثير من هؤلاء ممن ساهموا في معارضة السياسة الفرنسية حرموا من مواصلة التّعليم في ثانوياتها، بسبب انتقاداتهم الصريحة لإدارة المدارس

الفرنسية الإسلامية التي كانت مسخّرة لخدمة مصالح الاستعمار، ولعلّه من المجدي أن نذكر ما تعرض له محمد الأمين العمودي، المناضل والخطيب الذي قدّم النّفس والنّفيس لخدمة الأرض والعرض، حُرم من مواصلة دراسته في مدرسة قسنطينة الفرنسية الإسلامية بعد أن عارض سياسة الإدارة الإستعمارية طولا وعرضا.

قائمة المصادر والمراجع:

1. بوعزيز، يحي. (2004). موضوعات وقضايا في تاريخ الجزائر والعرب (دط،ج1).دار الهدى، الجزائر؛
2. حلوش، عبد القادر(2013). سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر (دط). شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر؛
3. سعد الله، أبو القاسم.(1998). تاريخ الجزائر الثقافي (ج3،ط1). دار الغرب الإسلامي، بيروت؛
4. سعد الله، أبو القاسم. (1992). الحركة الجزائرية 1830-1900 (ط1،ج1). دار الغرب الإسلامي، بيروت؛
5. شقرون، الجيلالي. (د س). تلمسان مركز إشعاع حضاري في المغرب الأوسط، مجلة الفقة والقانون، جامعة الجيلالي ليابس سيدي بلعباس، دع؛
6. فايزة، ش. المدرسة الإسلامية التلمسانية بالعبّاد منارة علم...وقلعة تكوين.جريدة الجمهورية.
7. قنان، جمال. (2007). التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار (1830-1944) (دط). دار الهومة، الجزائر؛
8. عمامرة، تركي رابح. (2001). الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر (ط5). منشورات anep، الجزائر؛
9. مهديد، براهيم. (جانفي – جوان، 2012). النّخبة التلمسانية ودورها الثقافي والسياسي والاجتماعي من نهاية القرن التاسع عشر إلى نهاية الحرب العالمية الأولى. آفاق وأفكار.
10. هلايلي، حنيفي. (12 ديسمبر 2017). المستعربون الفرنسيون في مدرسة تلمسان الرسمية، ما بين 1850-1962 دراسة في المسارات والتوجهات الاستعمارية والإستشراقية. مجلة الحوار المتوسطي. جامعة سيدي بلعباس؛
11. Abdellaoui Malika .(1999-1998) .Tlemcen métropole islamique sous la domination française de (1842-1905), Mémoire de maitrise .Aix en Provence, France: Faculté des sciences humaines, bastide; université.
12. Ageron, c. (1979). Histoire de l'Algérie contemporaine: de l'insurrection de 1871 au déclenchement de la guerre de libération 1954. paris: éd. p.u.f.
13. Archives D'outre-mer à Aix-en-Provence, France, boite:1s/37, Ecole Arabe Française de Tlemcen, état nominatif des éléves propsés pour une récompense, tlemcen, (01/12/1864). France: Aix-en-Provence.
14. bel, A. (1908). la population musulmane de Tlemcen. paris: librairie paul geuthner.
15. Bouchama, Kamal. (31 Mai 2008). Médersiens, les grandes retrouvailles, L'Expression, Alger, p.7
16. Bourdieu, P. (1958). Sociologie de l'Algérie. Paris: Presses universitaires de France.
17. Charle, Jarnier. (s.a). Les Médersas algériennes de 1850 à 1960. paris: paris.
18. Colonna, Fanny. (1975). Instituteurs algériens 1883-1939. paris: OPU.
19. Destaing, E. (1914). Dictionnaire français-berbère, dialecte des Beni Snous. Leroux, Paris: Paris.

20. Dib, Omar. (2006). Les amis du livre : fleuron du mouvement culturel algérien. Suivi le Mardi 04 juin 1957 à Tlemcen, un forfait contre l'humanité. Oran: Dar el Gharb.

21. Tengour, O. (S.D). la fin des Medersas ou la raison d'une aventure coloniale, Tlemcen et Constantine (1850-1880). وحدة البحث في الأنثروبولوجيا الإجتماعية والثقافية :جامعة وهران

22. Trumbull IV, G. R. (2009). An empire of facts. Colonial power, cultural knowledge, and Islam in Algeria, 1870-1914. Cambridge: Cambridge University Press.

23. Victor Foucher .(1858) .les bureaux arabes en Algérie .paris: Librairie international de l'agriculture de la colonisation.

24. Yvonne Turin (2003). .Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, écoles, médecines, réligion1830-1880 .Alger : édition houma.